د.خير الدين عبد الرحمن

حول تحصين الثقافة في زمن التحولات العاصفة



تحصين الثقافة العربية
في زمن التحولات العاصفة

د. خير الدين عبد الرحمن

لئن كانت إحدى أبرز مهام ثقافتنا، كما أي ثقافة أخرى، إطلاق الشرارة في إثر أخرى لتفجير طاقات نهوض الأمة المغيبة والمعطلة، فإن لهذه المهمة بالذات إلحاحها الواضح في راهننا العربي. أول شروط نجاح الثقافة في أداء هذه المهمة الملحة هو الوعي بالذات والوعي بالآخر، كي تدرك الأمة موقع أقدامها في مسيرة العالم، ولكي تؤائم سعيها نحو أهدافها -البعيدة منها والقريبة- في مسار مضمون وآمن ضمن حقل الألغام الذي يحيط بها

مع التوجهات والتحـولات الكبرى الطاغية في عالمنا، ولكي تحسـن اسـتخدام أفضل الوسائل المتاحة بأكثر السبل جدوى.

ولئـن تأرجحنـا طويـلاً بقلـق وحيرة بـين ثنائيـات رؤى متعارضـة، وتقاذفتنـا موجات نظريات وافدة متبدلة، ناهيك عن انشـطارات في صـفوفنا ما بين متحلل من جـذوره أو متشرنـق في ماضـيه، فقد بات إغفـال التمييز ما بين صـدأ تراكم قرونا على عقولنا وسـلوكنا من ناحيـة، وثوابت لا تنهض الأمة بغير التشـبث بها وحمايتها من الأعاصـير الوافـدة والأمراض والعلل الذاتية المستوطنة والغوايات المحرضة على خيانـة تلك الثوابت من ناحية أخرى بمثابة انتحار لاشـعوري. قبل كل هـذا، لابد من الإقرار الواعي بأن ثقافتنا ليسـت مبرأة – ولا أهلها– من بعض المسؤولية عن هزائمنا ونكساتنا واسـتمرار تمزقنا وتخلفنا .أحدث التوجهات والتحولات الكبرى في عالمنا والتي تفرز الأعاصير التي تواجهها ثقافتنا اليوم، بل وحياتنا عمومـا، تطورات الانهيار المالي والاقتصـادي الراهن الذي بدأ في الولايات المتحـدة، وآثـاره المباشـرة واللاحقة على مجالات الحياة الإنسانية.

كتـب بول كينيدي في هذا الصـدد يوم ٢٠٠٨/١٠/٩ قائـلاً: «الولايـات المتحـدة بالذات سوف تكون أكبر الخاسرين من هذه الأزمة التي جـاءت ضربة متأخرة في نهاية ولاية إدارة بوشـ الابن، ليس فقط تدهورا لمسـتويات معيشـة عشـرات الملايـين من الأمريكيـين، وإنما هو تدهور ثقل الولايات المتحدة الأمريكية العسكري /الاستراتيجي/ الدبلوماسـي عالميا أيضاً». لكننا نرى الأمر أبعد من هذه النظرة السطحية، إذ إنه يتعلق بخلل بنيوي وقيمي واكبت بذوره نمو المشروع الاسـتيطاني الأوروبـي فيما بـات ولايات متحدة أمريكية، منذ ولادة هذا المشروع. إنه خلل اسـتشرى وانتقلت عـدوى آثاره سريعا إلى خـارج الولايات المتحدة أيضـاً. كما لا نغفل المدلولات الاستراتيجية لحرب القوقاز الأخيرة، حيث برز تحرك روسـيا العسكري في جورجيا مؤشراً على نهوض اسـتراتيجي بعد طول شلل وامتهان، وإعلاناً عن سقوط نظام القطبية الأحادية الأمريكية في عالمنا. فبين جورجيا وفلسطين والعراق وأفغانستان ولبنان والصومال ترنحت الهيمنة الأمريكية، لتنهـار آخر الأمـر في وول سـتريت. ولعلَّ من أكـثر نتائج هـذا الانهيار المـالي إثارة

هو السقوط الذريع للنهج الذي كان رمزه الأخير جورج بوش الابن. وهو يجسد سقوط عدد من أسس التجربة الأمريكية القديمة نفسها بعد قرن من الطغيان والغطرسة والتجبر. ولئن كان مهما جدا النظر بعمق إلى مدلولات التطور الهائل المتمثل في انتخاب أسود كيني الأصل، مسلم الأب، رئيساً للولايات المتحدة، بعدما ظل الواسب WASP (أي الأبيض الأنكلوساكسوني البروتستانتي) منذ بدء الغزو الاستيطاني الأنكلو سكسوني لتلك البلاد يعتبر نفسه السيد الفطري الأبدي لها بلا منازع. أول سؤال يتبادر إلى الذهن هو ماذا سوف تقدم إدارة باراك حسين أوباما للشركات الكبرى وبيل غيتس وجورج سورس ولوبي الإيباك الصهيوني ومواقع القرار الخفية في مقابل الدعم الذي تلقاه منهم في حملة تجاوزت نفقتها مبلغاً أسطورياً غير مسبوق هو ستمئة مليون دولار، تكلفة لدعايته الانتخابية. دون أن يقلل طرح مثل هذا السؤال من ضخامة مدلولات وتفاعلات فوز شاب أسود مستجد على السياسة بديلا لرئيس دموي أحمق في مجتمع حكمته العنصرية البغيضة منذ نشوئه.

تتزاحم عناوين عديدة ومتنوعة أخرى. فقد تصدى روجيه غارودي مثلاً في كتابه (الإرهاب الغربي) لمقولة جان بول سارتر الزاعمة أن «الجحيم هو الآخر»، وأن «الفرد هو الأساس وفي انفتاحه على الآخر نوع من التلوث»، فقال غارودي: «الجحيم هو غياب الآخر أو انغلاق الآخر»، حيث «يولد الإنسان وهو مسكون بالآخر والآخرين، لكن الثقافة الغربية المنحرفة هي التي تقلص الإنسان، فتجعل منه فرداً وحيداً، وتوهمه بأنه ينبوع كل شيء»، ورد على الشعار الفردي الانعزالي لديكارت: «أنا أفكر، إذن أنا موجود» بشعار يقول: «أنا أحب، فأنا إذن موجود»، بل ومضى يتهم الفكر الاستبدادي الغربي بتدمير العالم والإنسان معا. جاء ريجيس دوبريه، متطورا من موقع المثقف الثوري الأممي المقاتل إلى موقع المفكر والفيلسوف المجرب، بمثل رؤية غارودي تلك إذ قال: «لقد أحدثت الثقافة الحديثة تشويشا وتصدعا دراماتيكيا في الوعي بالآخر، ودفعت كثيرين بضجيجها وألقها التكنولوجي إلى الانطواء على الذات، بينما الآخر هو الخلاص، إلا عند الذين ينظرون إلى العالم بعيون الذئاب».

قبل ذلك، اشتكى الباحث السويسري

سيموند دي سيمسوندي في القرن التاسع عشر من أن «الثروة المادية قد باتت كل شيء، فلم تعد هناك قيمة للبشر على الإطلاق».

ماذا بقي لنا نحن من قول إزاء جائحة عبادة العجل الذهبي واستفحال طغيان تسييد المال قيمة عليا لا تدانيها قيمة أخرى في قرننا الحادي والعشرين، سوى أن نترحم حتى على ما كان للبشر من بقايا قيم قبل قرون؟ نستذكر قول ألبير كامو بأنه انحاز إلى الاشتراكية بعدما تعلمها من معلم كبير، أعظم من كارل ماركس وانجلز وكل تلك السلالة الأيديولوجية: تعلم العدالة من الظلم، وتعلم الاشتراكية من الفقر وتعلم الوطنية من المنفى، وقد يتعلم الحياة من الموت لكن الفرصة ستكون قد ضاعت إلى الأبد.

دعونا قبل عشرين سنة في دراسة طويلة بعنوان «نحو انطلاقتنا الحضارية المنشودة»[1] إلى يقظة عربية يحتاجها مخاض الأمة النهضوي المأمول، كيلا نوغل في سلوك انتحاري عبثي يؤبد علاقة القاهر بالمقهور التي فرضتها الغزوة الصهيونية في تعاملها مع أمتنا، متوقعاً سقوطا وشيكا لنظام القطبية الثنائية نتيجة شيخوخة القطبين السوفييتي والأمريكي، أحدهما بعد الآخر. أشرت في مطلع تلك الدراسة إلى ملامح آلية التحولات الكبرى التي تنقل عالمنا من حضارة إلى أخرى، أو تستبدل نظاماً استقر طويلاً بنظام آخر، تشير إلى أن نواة التحول تتشكل في المجتمعات الأكثر حاجة إلى تغيير نمط حياتها المستقر عندما يبلغ تجذر هذا النمط حدا يتباطأ معه النمو ويصير وعاء

يضيق بحركة المجتمع وتطلعاته، فيقيد الإبداع ويتحكم إلى درجة التعسف أحيانا في النزوع الفطري والتوجه الإرادي إلى التطور، ويستحيل نظاما تحجرت قوانينه وباتت قيدا على النمو. وبقدر ما يكون المجتمع المرشح لبدء التغيير الجذري أكثر حيازة لعوامل التأثير الحضاري يمتد هذا التغيير إلى مجتمعات أخرى مستعدة لتلقيه، إذ تتوق بدورها إلى تغيير لكنها تفتقد الحد اللازم والقدر الضروري من عوامل ومقومات التحول الذاتي الأصيل المبادر، فتستجيب إلى نزعة إنسانية فطرية بالميل نحو الطريق الأسهل، محاكاة وتقليدا أو تبعية حضارية وفكرية، أو قهرا، وأحياناً بهذه العوامل مجتمعة.

سرعان ما خاب أملي في استجابة عربية لمقتضيات إسهام فاعل في تشكيل النظام العالمي البديل، إذ شهدنا مزيدا من التمزق بدلا من الوحدة، وإيغالاً في تغييب الأمة وشل إرادتها ومسخ قيمها وامتهان كرامتها وربط لقمة خبز المواطن في كثير من الأقطار العربية بممارسة إحدى عبادتين أو كلتيهما: عبادة حاكم متأله، وعبادة عجل ذهبي معاصر. وبدلاً من أن تستثمر الأمة آنذاك فرصة تغيير جذري بدا لنا وشيكا في عالمنا، لتنتزع حقها بتقرير مصيرها أولاً، حيث مارسه مارك سايكس وجورج بيكو وجيمس بلفور بدلا منها، ومن ثم تشارك في تقرير مصير العالم ثانياً، تلاحقت انهيارات مأساوية فقدت الأمة معها بقايا وزنها وفاعليتها.

تتكرر اليوم فرصة جديدة، وسوف تكون كارثة أكبر أن تفرط أمتنا مجددا بهذه الفرصة. ولكن هل تستعيد أمتنا بعض ما فقدت من وزن وفاعلية دون أن تعي مواقع أقدامها وطبيعة وتوجهات الرياح التي تهب عليها ومن حولها تهيئ كل احتياجات نهوضها، أي بعبارة أخرى: ما لم تتسلح بمعرفة كافية عن الذات وعن الآخر؟

❁ ❁ ❁

جاهر كثيرون في عالمنا متوقعين سقوط النظام الرأسمالي الحالي، وكانت قلة قد توقعت في وقت مبكر سقوطاً مزدوجاً للقطبين السوفييتي والأمريكي مستندة إلى معطيات وتحليلات مختلفة. من تلك القلة عالما الاجتماع روبرت داهل وتشارلز ليندبلوم، إذ قرّرا بجرأة بعيد انتصاف القرن العشرين فشل الشيوعية والرأسمالية

بصيغتيهما الأصليتين كليا، وأن الحل المستقبلي هو إيجاد نظام جديد.

نعود إلى إرهاصات الانهيار الحالي، حيث تلاحقت سلسلة من المابعديات،لا تقف عند ما بعد الحداثة،التي وصف المرحوم عبد الوهاب المسيري فكرها بالتقويضي المعادي للعقلانية وللكليات، بل بات لكل أمر ما بعده، ولكل حالة وظاهرة ما بعدهما وصولاً إلى نظريات عن ما بعد الإنسان. وتكاثرت الأعاصير: أمركة تتستر بالعولمة، وليبرالية جديدة، ونظام تجاري عالمي جديد، وشرق أوسط جديد، واستشراء وحشي لحملات العداء الهستيرية للإسلام التي باتت تشكل ظاهرة الإسلاموفوبيا. وحتى في العلوم البحتة والإنسانية، وجدنا من قالوا بما بعد فلسفة العلوم الحديثة مثلا، وهي نظرية دعت إلى التخلي عن معظم المفاهيم والنظريات والعلوم التي عرفتها البشرية، لتدخل الفكر الإنساني في متاهة اعتبار كل ما يراه الإنسان ويسمعه ويلمسه ويحسه ويعيشه هو مجرد سلسلة متوالدة من الأوهام، بما في ذلك العناصر المادية في هذا الكون، جامدة كانت أو سائلة أم غازية!

وهكذا اقتحم عالم الفيزياء الفرنسي الشاب فرانسوا ديبون مثلاً عالم الاقتصاد مؤخراً، مستغرباً الهلع الذي أصاب الناس نتيجة الانهيار المالي الأمريكي الراهن، الذي انتقل سريعاً إلى النظام المالي العالمي وإلى الوضع الاقتصادي المعولم، فخاطب ديبون البشر قائلاً: «لا تخشوا شيئاً، فكل ما تشاهدونه الآن سراب بسراب». منطلق الرجل آخر صيحة في فلسفة العلوم الحديثة تقول إنَّ كل شيء وهم، في كل مجال وحقل!

أصل هذه النظرية أن فريقا من باحثين فرنسيين قاده آلان أسبيه اكتشف في العام ١٩٨٢ قدرة الإلكترونات وجزيئات مادية أخرى دون الذرية على الاتصال والتواصل فيما بينها تحت شروط معينة، بغض النظر عن المسافات التي تفصل بينها، سواء كانت هذه المسافات أمتاراً أو كيلومترات أو عدة آلاف من الكيلومترات. ولتقريب المسألة إلى الأذهان نذكرّ بملكات التواصل الروحي والفكري بين أشخاص تباعد بينهم مسافات شاسعة، كأن يسمع أحدنا حديث شخص آخر على الرغم من أن كلا منا في قارة مختلفة، دون استخدام دارة تلفزيونية مغلقة أو الإنترنت لتحقيق هذا التواصل أو

الاتصــال. لقد هتك هذا الاكتشاف بعدما أثبتته تجارب عديدة ما اسـتقر من تبجيل لنظرية آينشتاين القائلة بأن الضوء أسرع من أي اتصــال أو انتقال مادي. وتهشم التسليم الــذي دام عقوداً بسـلامة هــذه النظرية وما بني عليها مــن قوانين وتطبيقات! قال الباحــث الفيزيائي في جامعــة لندن ديفيد بوهــم مفسراً ما توصــل إليه فريق أسـبيه الفرنســي إنّ الاكتشــاف الجديــد يعنــي ببســاطة أنه ما من حقيقة موضوعية، وإنّ الكــون بأسره ســراب، أو خيــال، أو مجرد (هولوغرام) عملاق رغم الإيحاء بصــلابة معادنه وصخوره وترابه ورماله وخشبه وما إلى ذلك، فالأمر كله وهم بوهم!

ثم عرض التشـبيه الآتــي: لنفرض أن ثمــة ســمكة في حوضــ، وأننــا نراها عبر كاميرتي فيديو إحداهما تصــور الســمكة من الواجهة الأماميــة للحوض والثانية من الواجهة الخلفية. ما ســوف نعتقده هو أننا نرى سمكتين لا سمكة واحدة، لكننا سننتبه إلى أنــه كلما تحركت الســمكة المفترضــة الأولى فعلــت مثلهــا الثانية، فنســتنتج أن ثمة اتصــالاً بين الســمكتين. لكــن بالطبع لاتوجد ســوى ســمكة واحدة، والمسألة كلها تتعلــق بوعينا وخيالاتنا. وهــذا ما يحدث تماماً بين جزيئيات أسبيه. فأصغر جزء في الكون يتضــمن الكل. والإلكترونات في دماغ الإنســان ترتبط بالجزيئيات في كل ســمكة تســبح وفي كل قلــب ينبض وفي كل جســم يلمع. أما الأجزاء التي يراها الإنسان فكلها من اختراع خياله بما في ذلك حتى الزمان: حيث يتواجد الماضــي والحاضر والمستقبل جميعا في آن واحد معا ضــمن «هولوغرام الوجود».

يذكر كلّ منّا لقطات على شاشة التلفاز لصــورة ما على مســاحة الشاشة، لا تلبث أن تنشطر فتتكرر عدة نسخ متجاورة لنفس المشهد، سواء كان ثابتا أو متحركا، ثم تتوالى الانشطارات لتصنع عشرات النسخ المتجاورة لنفس الصــورة الأولى، ثم مئات النسخ، ثم آلاف النســخ، وهكــذا.. فالهولوغــرام هو صــورة ثلاثية الأبعاد تنتج بوســاطة الليزر وتســفر عن مشــهد عجيب. فإذا ما قمنا، مثلا، بتصوير أي شكل بالليزر على ورقة ثم عمدنا إلى تمزيق الورقة، فلا نحصــل على صورة نصف الشكل الأصلي بل نحصل على صورته كاملة. وعندما نمزق النصف أيضاً بدوره إلى نصفين نحصل مجدداً على صورة

الشكل الأصلي كاملة، ونظل نحصل على صورة الشكل الأصلي كاملا مهما مضينا في تمزيق كل نصف جديد إلى نصفين، ففي الهولوغرام، خلافا للصور التقليدية، يحتوي كل جزء، مهما تناهى في الصغر، على جميع المعلومات الموجودة في الكل، وعلى جميع المكونات المكونة للكل. هذا ما يجعل الجزيئيات قادرة على الاتصال والتواصل مع بعضها بعضاً مهما كانت المسافات الفاصلة بينها، ليس لأنها ترسل إشارات إلى بعضها بعضاً، فهذه الجزيئيات ليست كيانات فردية قائمة بذاتها وإنما هي في الواقع امتدادات لشيء ما أساسي، بل لأن المسافات أو الانفصال بينها وهم!

نبتعد عن فرضية ادعاء الوجود بكل ما فيه وهما شاملاً، ونقترب مجددا من التحولات السياسية الكونية ذات البعد الحضاري والثقافي: توقع زبيغنو بريجنسكي، اليهودي بولندي الأصل الذي لمع مفكرا أمريكيا وعالميا بارزا قبل وبعد عمله مستشارا للأمن القومي في إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، في كتابه (خارج السيطرة Out of Control) أن بداية القرن الحادي والعشرين قد تجيء أمريكية، لكنه يشك في بقاء ولايات متحدة أمريكية بعد ذلك. فإذا كان القرن العشرون -كما قال بريجينسكي- هو قرن الموت العظيم Mega death، الذي أودى عبر سلسلة من الحروب بحياة ثمانين مليون إنسان، (وهو رقم ارتفع بعد حروب العراق ومجازر البوسنة وكوسوفا ورواندا وفلسطين والشيشان إلى خمسة وثمانين مليونا على الأقل) فالقرن الجديد سوف يضيف الشكل الأكثر جنونا من الكارثة، إذ سيكون بإمكان التلاعب البيوتكنولوجي بالتكوين البشري أن ينتج أنواعا أخرى منفصلة كليا عن الإيقاع الإنساني العام.. دون أن يكون بالإمكان تحويل كل سكان الولايات المتحدة بيوتكنولوجيا أو جينيا، بحيث تصير هذه الدولة كوكب النهاية بسبب الفجوات الذهنية والسوسيولوجية المستحيلة.

نقف عند نبوءة هامة لبريجنسكي، بدا لبعض الناس أنها كانت أقرب إلى التحذير منها إلى النبوءة. لقد عمل بريجنسكي بجد ودهاء على تقويض الاتحاد السوفييتي ومعسكره. وما إن تم هذا حتى أطلق بريجنسكي مقولةً بالغة الإيحاء والخطورة في كتابه المشار إليه، لم يلتفت كثيرون إليها

في غمـرة ما سـاد العالم آنـذاك من ذهول وأحـزان واحتفالات وأحـلام وأوهام. فقد قال إنّ: «الشـيوعية كظاهرة فلسفية تكاد توحي بأنها لم تولد للقرن العشرين، بل للقرن الحادي والعشرين! ومضى يقول: مع الخواء الروحي وانعدام الضوابط الميتافيزيقية، لنا أن نتخيل تمثال كارل ماركس وقد انتصـب مكان تمثال الحرية في نيويورك»! وتتلاحق أسئلة مشروعة:

– هـل يرتبـط الانهيار المـالي الراهن بهذا الاسـتشراف الذي أطلقه بريجنسكي، بعدما كرّر أكثر من خبير اقتصادي الدهشة من اضطرار الرأسـمالية العالمية اليوم إلى معالجة مأزقها بأساليب اشتراكية؟

– وما هو سر اختيار ماركس «أكبر مفكري الألفية الميلادية الثانية في اسـتفتاء أجرته هيئة الإذاعة البريطانية (B.B.C.)؟

– ومـا هو سـر الإقبال الشـديد على مؤلفـات كارل ماركـس والكتب الباحثة في الماركسـية في معرض فرانكفـورت للكتاب الذي أقيم في منتصف تشرين الأول ٢٠٠٨، وفي شـمال أمريكا وغـرب أوروبة ومناطق كثيرة من العالم، بعد إعراض شـبه تام عنها في السنوات العشرين الماضية؟!

– ثم أليسـت ذروة تمازج الملهاة بالمأساة سقوط الأنظمة الشـيوعية في شرق أوروبة كأوراق الخريـف دون أن يدافـع عنها حتى سـدنتها، فيتوهم نقيضـها الرأسمالي أنها ساعة انتصاره النهائي،بينما تنجو شيوعية الصـين من السـقوط بولوجهـا عالم حرية السوق محتفظة بعنوانها الشيوعي؟

– بـل أليسـت مفارقة كـبرى أن يتوقع بريجنسـكي انهيـار قلعة الرأسـمالية في الولايـات المتحـدة – وحتـى تحولهـا إلى الماركسـية– وهـو الذي هندس في الشـهر الأخـير لعمله في إدارة الرئيس كارتر عملية حشد وتعزيز تنظيمات «المجاهدين المسلمين» لمقاومة التدخل العسـكري السـوفييتي في أفغانسـتان، وعمل على تأمـين دعم بلدان الخليج وباكستان الهائل خاصة لهم.

– كرّر بريجينسـكي لاحقاً الإشادة بدور الإسلام في مقاومة الشـيوعية وإسقاطها، ودعا إلى تشـابك أكبر بين الدين والسياسة. فكيف يرى بريجنسـكي المقرب من الرئيس بـاراك أوباما، دور الإسـلام اليوم أو غداً، وهل يريده مقاوماً لانبعاث الماركسية؟

لقـد أطلـق مديـر مجلـة (لوبـوان) الباريسـية[٢] صرخـة فزع متسـائلاً: «هل

نحن نعيش مرحلة سقوط الغرب؟»، ويجيب بنفسه قائلاً: «إذا ما ثبت أن الغرب ينهار فإن ذلك من صنيعنا نحن لأننا جمعنا بين الجشع و الغباء!» وأضاف الكاتب بمرارة: «إن أزمة النظام النقدي الغربي التي تهز مجتمعاتنا هذه الأيام أخطر من أزمة ١٩٢٩، لأننا اليوم مهددون بأن يحل لاعبون دوليون آخرون محلنا ويعوّضونا في تصريف شؤون الدنيا، أمثال الصين وروسيا والخليج العربي».

قبل هذا، كان جوريف ستيجليتز، أستاذ الاقتصاد في جامعة كولومبيا الحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد عام ٢٠٠١ والمدير المساعد للبنك الدولي ومستشار الرئيس السابق كلينتون، قد حذر في وقت مبكر مما وقع مؤخرا، كما في كتابه (الوهم الكبير) وكتابه (حين تفقد الرأسمالية عقلها) فصارح الغرب المغرور بأنه أشد هشاشة مما يتصور وأن تفوقه عسكرياً وتكنولوجياً لايضمن الرفاه الأبدي في ظل نظام رأسمالي جائر يستعبد أمم الأرض ويدوس الحق والقانون الدولي.

وصدر في نهاية تشرين الأول ٢٠٠٨ في باريس كتاب العالم (أندريه لوبوه)، الرئيس السابق للمركز الوطني للبحوث والدراسات الحكومي الفرنسي، بعنوان: (انغلاق الكون) متهماً الغرب بتبديد طاقات الأرض وممارسة التخمة وتلويث المحيط وتدمير الطبيعة بدعوى تطويعها لخدمة مصالحه الضيقة واستعباد الشعوب المختلفة عنه تحت ستار العولمة المزيفة. وصف هذا العالم الفرنسي حال الغرب بالإسراع نحو الكارثة، معتبراً ما تم من انهيار أسواق المال وإفلاس المصارف مؤشرا على انهيار قيم الغرب الرأسمالية الخاطئة على رؤوس الناس جميعا!

وأصدر المفكر الفرنسي البلغاري (زفيتان تودوروف) كتاباً جديداً في تشرين الأول ٢٠٠٨ عنوانه (الخوف من البرابرة ما بعد صدام الحضارات) بحث ظاهرة الخوف من الإسلام، التي استفحلت في الغرب مؤخراً، وكاد الغرب يجعلها أحد أسس العلاقات الدولية، منحدراً إلى اعتبار المليار وربع المليار مسلم أمة خارجة عن سياق التاريخ، بل شنّ حروباً استباقيةً عليها، بينما الخوف من الإسلام هوس لا يرتكز إلى أسباب موضوعية. ربط هذا المفكر الحروب الأمريكية ضد العراق وأفغانستان بالانهيار المؤسساتي والمالي والقيمي الذي

ضرب الغرب. ودعا إلى مراجعة علاقات الغرب والعالم الإسلامي على أساس الاحترام المتبادل وتجاوز النمطيات الجاهزة ومركبات الحروب الصليبية والاستعمارية.

نتجاوز مواقف مماثلة، لكننا لا نتجاوز مقالة أثارت خجلنا إلى مداه الأقصى في زحام تعليقات وتطورات وتوقعات، عنوانها «الحاجة إلى جان مونيه عربي»، كتبها يوشكا فيشر وزير خارجية ألمانيا السابق، نشرت في مطلع تشرين الثاني ٢٠٠٨: فقد ضاق فيشر ذرعا بإيغال العرب في التفتت والتنافر والتنابذ والانتحار البطيء، فتمنى ظهور مؤسس لوحدة عربية كما كان مونيه لأوروبة!

❊ ❊ ❊

تلاحقت أحداث وتطورات أوضحت مدى بؤس ما بلغته استباحة أمتنا وتبعية معظم أنظمتها الحاكمة. جاء التدخل الأمريكي السافر في مناهج التعليم لدينا ومحتويات كتبنا المدرسية وقوانيننا وعمل المرجعيات الفقهية الدينية لدينا، بل وفي نصوص وتوجهات خطب الجمعة لأئمة مساجد عدة دول عربية وإسلامية، ناهيك عن المراقبة الأمريكية المباشرة للإنتاج الأدبي والفني، ولما تنشره المؤسسات الإعلامية العربية من إنتاج مقروء ومسموع ومرئي، والاعتراض على ما لا ترضاه الإدارة الأمريكية الصهيونية. وهكذا لم تقف الهيمنة الأمريكية - الصهيونية السافرة عند مصادرة الثروات والسياسات والقرارات في أكثر دولنا، بل مضت لتمسخ وتغير خصائص هويتنا ومعتقداتنا وسلوكنا وحياتنا اليومية، أمة وأفرادا. ما كان هذا ليحدث لولا تشرذم النظم والنخب العربية على أسس قطرية وفئوية تغلب التناقضات الثانوية على التناقض الرئيس، وتقدم مصالح ذاتية صغيرة تافهة على إجماع الأمة وحقوقها والإرث والمصير المشتركين. ما كان هذا ليحدث لولا الإفراط في قمع مارسته عقليات متخلفة قصيرة النظر في عدة أقطار عربية، استمرأت مسخ الفكر والمفكرين والثقافة والمثقفين خدماً في البلاط أو السراديب، ورسمت الدور المسموح به لهم في حدود المهرج أو المخبر أو كاتب فتاوى معلبة متقافزة بين النقيض ونقيضه لتناسب مزاج السلطان المتقلب ورغباته. توسعت مناطق تحريم التفكير والتعبير، حتى كاد خيار المفكر والمثقف يقتصر على

خضوع قسري ونفاق رخيص، أو انزواء واحتماء من البطش بالابتعاد عن الشأن العام، أو حتى الهرب من الوطن، بديلاً لمواجهة غير متكافئة يهدده فيها التجويع والتشريد والقتل، تجديدا لمأساة الحلاج ومحنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد في سياق علاقة مريضة ما بين السياسي والثقافي. لقد أساء سياسيون لأنفسهم وللمجتمع إذ اعتبروا ثقافة الانتقاد أو الاحتجاج خروجاً على النظام وخرقاً للقانون. دفع هذا النهج السقيم كثيرين للانزواء أو الهجرة أو إطلاق توتراتهم بالعنف بديلا لانكفاء ذليل. وهنا تعود بقوة مسألة التباس العلاقة بين الثقافة والسياسة في مجتمعاتنا العربية. ولئن اختصر المرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين حلا اقترحه لهذه العلاقة في ظل جائحة الغزو الصهيو-الأمريكي متعدد الوسائل للعالم العربي/ الإسلامي، عنوانه التفريق بين خيارات الأمة وضرورات الأنظمة الحاكمة التي تضطر إلى رضوخ يوقعها في مواقف وسياسات تناقض إرادة الأمة وحقوقها وأهدافها ومصالحها، فإن تعقيدات هذه العلاقة وتشعباتها وإفرازاتها أوسع وأضخم من حصرها بهذا الاختزال، مع وجاهته وأهميته.

❁ ❁ ❁

يرتبط العنف بالسياسة على ما يقول ماكس فيبر، والسياسة هي على وجه التحديد والحصر تتعلق بإدارة المجتمع السياسي، أي الدولة. وكل دولة تتأسس على القوة، من هنا كانت العلاقة بين الدولة والعنف حميمة جداً. وكان رجل الدولة أول من يمارس العنف سلمياً، على الأقل، وبدرجات متفاوتة من خلال هيمنته على السلطة، ومن ثم على الناس. والسياسة في بلاد العرب- كما تقول منى فياض في كتابها (أقنعة الثقافة العربية) - تعد ميداناً مخيفاً للمواطن العادي وتتخذ طابعاً مبتذلاً أكثر فأكثر، فصار الشعار الشائع هو«اتركوا السياسة لأهلها»! ولكن من هم أهل السياسة؟ وهل السياسة وظيفة؟ ولم الافتراض البليد في الحالة العربية بأن السياسي، والحاكم خاصة، ليس مثقفا، والمثقف -بالمقابل- لايصلح سياسياً أو حاكماً؟

لا نغفل ارتباط مثل هذا الخلل بالمستوى الخطير الذي بلغته الأمية في المجتمعات العربية، بما فيها الأمية الثقافية التي تعاني منها نسبة عالية متزايدة من المتعلمين والخريجين الجامعيين، إذ تتفاقم التبعية الثقافية متعددة الأشكال والسطحية

والابتذال وتسليع الإبداع، بما قتل روح الابتكار والتطور ومسخ هوية المجتمع وفاعليته. لا نغفل أيضاً عن التدمير الذاتي الذي مارسناه طويلاً بلا وعي على مستويات متعددة، وخاصة التغافل عن مفاعيل ترسبات الجاهلية ومكوناتها الذهنية في العقل والسلوك العربيين المعاصرين.

تعددت محاولات تشخيص أسباب تخلفنا وبطء تطورنا وتفاقم مشاكلنا وأزماتنا، وفي معظم تلك المحاولات نصيب من الصحة، لكن الأصل أن نركز على المسببات الذاتية والداخلية، بدل التهرب من تحمل المسؤولية بإلقاء كل أوزارها على أطراف خارجية، مهما كان دور تلك الأطراف فاعلا ومؤثرا. وواضح أنه: «يقف وراء تخلف مجتمعاتنا ثالوث شيطاني لعين قلب منظومة المفاهيم والقيم رأساً على عقب، وهو يتشكل من الانتهازية والذرائعية التي تبرر الوسائط كلها، وأخيراً ما يسمى في اللهجات الشعبية الفهلوة، والفهلوي.. يبتكر أساليب هي أقرب إلى السطو والقرصنة من أي شيء آخر، ولا يهمه كم سيسقط من الضحايا قبل أن يبلغ هدفه وهو غالباً شخصي وغير نظيف، ويخلو من أي بعد أخلاقي أو وطني».[٣]

تتحمل السلطة الحاكمة والمثقفون والساسة والمجتمع بأسره مسؤولية علاج هذه الظواهر الخطيرة عبر توحيد الجهود، لا تكريس التنافر والتباعد. صحيح أن طبيعة السلطة وأجهزتها متمركزة لا تحتمل سوى النزر القليل من الحركة والمرونة، بينما تزخر الثقافة والحضارة بالتفاعل والتبادل الفكري والحركي والانطلاق في آفاق وسعت الانفجارات المعرفية ووسائل الاتصال والتواصل الإنساني مداها على نحو هائل، لكن الصحيح أيضاً أن التوازن في العلاقة المتبادلة في إطار هذا التناقض، وعلى الرغم منه، قد سمح بتعايش مبدع بناء في حالات مجتمعات كثيرة. وإذا كانت السلطة بطبيعتها لا تتنازل عن شيء من سطوتها إلا تحت ضغط ما، ولا تعيد بعض ما حجبته من دور ومسؤولية إلا بمقدار ما يحتاجه درء خطر يهددها، فمسؤولية المثقفين العرب مضاعفة لتدارك المخاطر، في ظل أوضاع عاصفة تهدد باجتثاث دول وإمبراطوريات، خاصة بعد تشديد منظرين أمريكيين على بعد رابع للسيطرة على العالم هو البعد الثقافي يضاف إلى الأبعاد العسكرية والاقتصادية والسياسية، تأكيداً

لتشديد بستر ثرو، أبرز منظري العولمة، أن «الثقافة الأمريكية ليست الثقافة المهيمنة، بل هي الثقافة الشاملة».

أخذت السيطرة الثقافية الأمريكية شكل تدخل سافر وقح استغل حاجة مجتمعات إلى التغيير والتصويب والتطوير ليفرض توجهات وإجراءات وفلسفة وقيماً تجعل الغزو الثقافي الذي كثر الجدل بشأنه واقعاً صارخاً يصر على استسلامنا وارتهاننا. لهذا تستدعي المواجهة العربية مشروعاً ثقافياً تجديدياً يستهدف الأمة بأسرها، منطلقاً من حاجات غالبية الناس، فلا مجال لثقافة محايدة أو مترفعة عن هموم الأمة ومآسي المجتمع. لا يمكن أن يتم تجديد أي ثقافة إلا من داخلها، مهما بلغ مدى تفاعلها مع الثقافات الأخرى، وهو تفاعل رأى محمد عابد الجابري أن آلية التأصيل الثقافي التي تتيح الانفتاح على منجزات الحضارة الغربية ومفاهيمها الفلسفية والعلمية وتكريس أساليب البحث العلمي ومناهجه نظريا، والتحرر وتعزيز الاستقلال بما ينسجم مع خصوصياتنا ويفي حاجاتنا المستقبلية، تشكل إطاره الملائم. لا يعني التأصيل الثقافي نقل واستنساخ الأفكار والمفاهيم، بل استنباتها في تربة أصيلة تقربها إلى رؤانا وتربطها بتصوراتنا الفكرية والروحية[٤].

تفرض الحاجة إلى هذا المشروع الثقافي العربي احترام أولوية البعد الإنساني / الثقافي/ الاجتماعي للتنمية التي طغى على مشاريعها عمليا بعد مادي اقتصادي لمصلحة قلة غنية متحكمة. لعل من أهم غايات هذا المشروع التأسيس لنسق قيم إيجابي يلتزم مرجعية أخلاقية /شعبية/ عقلانية تنطلق من الذات الحضارية للأمة، وتحترم صفات مطلوبة في المثقف: وعي شامل وقدرة على الالتزام بما يقول ويكتب، وتأثير فعال في مجتمعه وما وراء مجتمعه، وشجاعة الممارسة الدائمة للنقد الذاتي جنبا إلى جنب مع ممارسة نقد الآخرين. أي الخصال التي اشترطها بول بوفيه في المثقف المسؤول، لدى وصفه إدوارد سعيد في كتابه (إدوارد سعيد ومهمة الناقد): الاتساع والعمق في المعرفة، والرصانة التاريخية والأكاديمية، والبعد الأخلاقي والقيمي في الموقف السياسي الذي لا تقوم حضارة بدونه.

❁ ❁ ❁

آن الأوان لتصويب معادلة التواصل والتفاعل البناء ما بين التراث والبناء

المستقبلي، وما بين الذات الحضارية والعالم الخارجي، لتستعيد الأمة مناعتها وتفجر قدرات الإبداع لديها، مقاومة الجمود والانغلاق والتبلد والانهيار وما يقابلها على ضفة الفشل الأخرى من انبهار بالآخر وتبعية وتقليد واستلاب له وإحباط واستسهال التذرع بالعجز والاستسلام للتجزئة والتفتيت والغزو. وبحيث تسقط كذلك البدائل المهينة التي حاصرت المثقف بين استقالة من الذات وخيانتها، أو الانكفاء والانزواء السلبي، أو الكمون المتحفز لقفزة في المجهول، أو الارتهان للسلطان، أو الهروب من الوطن، أو التنكر للذات الحضارية للأمة والانسلاخ منها. بغير هذا يزداد اضطراب حركة الفعل المجتمعي والفكري والسياسي وعجزها عن فهم المشكلات الحضارية الراهنة والتعامل مع التحديات الخارجية والداخلية، إذ يتجمد المعيار الفكري الذاتي، ويندفع الواقع العربي في حركة تطوره الذاتي إلى التيه، ويصبح مستباحا أكثر لجذب مراكز التأثير الخارجية. يبدأ قيام المثقف بواجب الدفاع عن الأمة واستنفار مقومات الهوية لحماية ذات أمته وأصالتها ووجودها الحضاري ووحدتها ودورها الإنساني وتحصينها ضد الغزو والتفسخ والتحلل القيمي والأخلاقي والبنيوي من استعادة الوعي بالذات والثقة بها، وتكريس احترام البحث عن الحقيقة. مسؤولية العقل النقدي المستقل ذاتياً ووظيفياً عن ضغط مؤسسته السياسية -لا عن الالتزام والاهتمام السياسي- أن يفرض احترام استقلاله ودوره في إضاءة مواطن الخلل واقتراح الحلول لتصويب الأداء، دون خشية بطش سلطوي أو ضغوط مراكز قوة ونفوذ. وكلما توفرت حرية الفكر تصبح مهمة العقل النقدي أكثر سهولة، وتصبح قدرته على الإسهام في الإصلاح والتصويب أكبر فعالية. إن مسؤولية المجتمع في هذا الصدد أساسية لضمان توفير هذه الحرية إزاء مفارقة ارتفاع مستوى الحرية أيام الخضوع للاستعمار الأجنبي مقارنة بمآلها في ظل بعض أنظمة ما بعد الاستقلال! إن احترام دور العقل النقدي شرط رئيس لتحقيق الانتصار العربي الأكبر على الذات، أي علاج مواطن الخلل والقصور والتقصير فيها، شرطاً مسبقاً ورديفاً للانتصار على العدو الغازي. إنه الخيار الثالث الصائب في علاقة مريضة للثقافي بالسياسي متأرجحة بين نقيضين مدمرين: إفراط في إدانة

السلطة وتحميلها كل الأوزار، أو إفراط في تقريظها وتبرير تسلطها وفشلها. بينما ترتبط فعالية العقل النقدي ارتباطاً وثيقاً بالبحث عن الحقيقة كما هي، لا كما تريدها سلطة أو جهات صاحبة نفوذ. هنا تلتقي شكوى مطاع صفدي من «افتقاد ثقافتنا العصرية من تقاليد البحث عن الحقيقة، من عدم الشعور بالحاجة الوجودية بعد اكتشاف الحقيقة» [٥] مع شكوى نبيل علي من بطء حركة أمتنا في عالم صار سلسلة لا متناهية متسارعة الإيقاع من جولات الهدم وإعادة البناء، بحيث جعلنا جوعى للحكمة والمعرفة ونحن غرقى في بحر المعلومات والبيانات،عالم بات يغص بالاحتمالات والتوقعات واللايقين، إلى درجة أصبح الإنسان معها يخشى النجاح قدر ما يخشى الفشل [٦].

نعيد هنا التنبيه إلى تفاقم خطر آليات ترويض أمتنا وتدجين قواها الفاعلة في العقود الأخيرة متحالفة مع عمليات مبرمجة متعددة الجوانب لتطويع هذه الأمة المتهمة بأنها أسيرة شرنقة ماضوية، وأنها تدمن خداع الذات والإغراق في الادعاء والتبجح وخوض حروبها بالشعارات والأناشيد والمبالغات بل يتباهى أفرادها بالكسل والدعة وتعطيل طاقات الإنتاج وتبديد الفعل الجاد وقتل محاولات الإبداع والابتكار، أوبأنها ظاهرة صوتية تبرع في الصراخ والثرثرة دون إرادة فعل أو قدرة على الإنتاج،. إن ذاكرة الأمة مستهدفة بقوة، في مسعى إلى سلخ الأمة عن جذورها ومقوماتها. بل إن الكثير مما يتم السماح بتذكره، أو استدعاؤه من مخزون الذاكرة يجيء مزوراً وفق برمجة تتعمد - إضافة إلى التزوير والتزييف- إغراق الأمة بكم هائل من النفايات التي يراد لها أن تكون الوعي العربي المعاصر، بدلا من إخراج ثقافتنا من حالتي التقافز بين الاستلاب والتبعية والالتحاق والتماهي مع الآخر أو رفض كل ما لدى الآخر ومنه رفضاً مطلقاً عدمياً، إلى حالة تفاعل ندي يستند إلى ثقة بالذات وإصرار على دور فاعل. تتضح هذه الذاكرة المبرمجة ذكريات مشتهاة وإسقاطات لرغبات وأحلام، واسترجاعا لأحداث متخيلة صاغتها انفعالات دفينة،لا لحقائق مطابقة لوقائع مضت. التذكر الرغبوي أو المشتهى لذكريات مشتهاة يشكل حقلا نشطا لاختلاط خطر بين التذكر والتخيل والتوهم. وسرعان ما يطغى التفكير الرغبوي على التفكير الموضوعي والواقعي.

يذهب بعض العلماء في هذا الصدد إلى أن لدى المسنين ذاكرة خصبة بشأن طفولتهم، أكثر مما كانت خصوبة تلك الذاكرة في سن الأربعين أو الخمسين. كما يرى هؤلاء العلماء أن المتقدمين في العمر يتذكرون الجميل والمفرح من الذكريات، ولا يتذكرون السيئ منها إلا فيما ندر، فذاكرتهم انتقائية نشطة في استرجاع المشتهى والإيجابي واستبعاد المنغص والسلبي من الذكريات. فإذا ما اعتمدنا نفس المعيار فيما يخص التذكر الجمعي هل يصح الزعم بأن الأمة التي تدمن تذكر المرغوب والإيجابي والمشرق فقط من تاريخها -صحيحاً كان أم مزوراً- هي أمة شائخة؟ وإذا كان علماء قد أثبتوا كما نشرت مجلة العلوم الجديدة[٧] أن التوتر والقلق في سنوات العمر المبكرة يؤديان لاحقاً إلى فقدان المرء ذاكرته، أو ضعفها مع سائر القدرات العقلية، فهل ينطبق هذا على حالة مجتمع أو أمة، كما في حالة الفرد؟ الجواب يهمنا لأننا جميعا نعيش تحت وطأة قلق وتوتر هائلين.. وإذا كانت «الحقيقة تقاوم باستمرار إفرازات أكاذيبها الذاتية» فالعبث بالذكريات -مقصوداً كان أو بغير وعي- يضاعف من تلك الإفرازات، خدمة لما استشرى في مجتمعاتنا من طغيان الذرائعية، وتلذذ بتخدير الذات لتبرئتها من المسؤولية عن التردي والعجز والفشل. التذكر سبيل الإنسان إلى التعلم والتثقف والمراجعة والتصويب والتطور وتوسيع المدارك وتعزيز المواهب واكتشاف الحقائق والتعرف إلى الكون، ثم إطلاق طاقات الإبداع بعد مراكمة المعلومات وتحليلها وتركيبها والتفاعل معها لتحويلها إلى معارف، فكيف يكون النسيان، عدو التذكر، هو النعمة؟ [٨]

❁ ❁ ❁

بين مظاهر عديدة لأزمتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي المستباح، يصفعنا ارتداد العديد ممن نصّبوا أنفسهم، أو تمّ تنصيبهم، سدنة للثقافة العربية. نفهم أن يدفع الإحباط أحدنا إلى خرق المألوف والمعقول من سلوك وتفكير إذ يختل توازنه ألماً. نفهم أيضاً أن يقسو المحب على من يحب، فيقرّعه لخطأ بدر منه أو تقصير إلى حد الحديث عن موته! نفهم تساؤل مثقف عربي بارز حتى عن «مبرر استعمال الوحي لغة العرب بقواعدها ومفرداتها وتراكيبها في النص القرآني، جامع التجارب الإنسانية التي سبقت نزوله، على الرغم من أنها كانت

حتى ظهوره لغة وثنية». بل وأن يعلن رأياً عولمياً مفاده أن «الهوية لا ترتبط بالشأن والمعتقد الديني، ولا بالثقافة واللغة التي يتحدثها الناس، ولا بالوطن والدولة.. لا ترتبط بأي من المحددات السابقة، ولكنها مشروع مفتوح وإبداع متواصل، يتم تلمسها في الخاص الإبداعي».. لكننا نستغرب أن يخلص هذا المثقف البارز -علي أحمد سعيد اسبر (أدونيس)- الذي منحته الأمة الكثير من التقدير والدعم، إلى الإعلان في ختام ندوة عامة أقامها للمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة أن «اللغة العربية إلى انقراض»، وأنه «لا مستقبل للأمة العربية ذاتها فهي مجدبة وتنقرض»! (٩)

لم تكن تلك المرة الأولى التي تحدث أدونيس فيها عن انقراض لغتنا وأمتنا، إذ أكد في الأسبوع نفسه ضمن برنامج (الباحث المقيم) في مكتبة الإسكندرية أن «اللغة العربية الفصحى في سبيلها إلى الموت»(١٠)، وقال إنها: «تتراجع خلال السنوات الأخيرة بشكل كبير على مختلف الصعد في المدارس والجامعات. وحتى لو استمعت للشيوخ وخطباء المساجد المعنيين أكثر من غيرهم بالمحافظة على اللغة ستجد هذا التراجع.. وفي المقابل، ستجد تقدما للهجات المحلية في الشعر والكتابة. وهناك الآن عشرات المجلات والمهرجانات لشعر العامية». لن نعود إلى ما أثاره موقف أدونيس المماثل السابق في الجزائر أيضاً، إنما نرد على من ينعون لغتنا مذكّرين بوعد الله الحق: «إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»، فهذا وعد نوقن ونعتز به ونؤدي واجبنا في سياقه. لن نتمترس خلف أسوار تاريخ صمدت اللغة العربية على امتداده أمام جوائح المغول والتتار والصليبيين وحملة التتريك والأوربة والأمركة، ولن نفصّل في أن أولى خطوات تنفيذ مشروع التحديث الذي قاده محمد علي الكبير كان تدريس الطب والعلوم الحديثة في مصر باللغة العربية سنة ١٨٢٦مثلا (١١). ولن نكرر ما سبق أن كتبناه مفصّلاً عن كون اختلاف لهجات القبائل العربية وتمايزها منذ العصور القديمة حقيقة واقعة، لكنها لم تضعف اللغة العربية الفصحى، ولا حدّت من انتشارها واستعمالها على مدى آلاف السنين، وهكذا هو شأن تمايز اللهجات العامية المعاصرة. إنما نعود إلى دراسات اليونسكو وهيئات علمية أخرى أكدت أن آلاف اللغات في عالمنا تمضي إلى انقراض،

حيث أن ٩٥٪ من مجموع اللغات في عالمنا اليوم لا يتحدث بها سوى ٤٪ من مجموع البشر. لذلك بات منطقيا أن نعيش حالياً انقراض لغتين كل شهر في العالم. ومع وجود (٢٠١١) لغة محكية في أفريقيا مثلاً فإن لغات المستعمرين السابقين (الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية) طاغية في التعامل والتداول. وهذا هو حال الإسبانية والبرتغالية والإنكليزية وأخيراً الفرنسية، فهي اللغات الرسمية والسائدة في بلدان القارة الأمريكية، شمالها ووسطها وجنوبها، أما لغات السكان الأصليين -الذين أباد الاستعمار الاستيطاني الأوروبي معظمهم إبادة شاملة- فالتعامل بها محدود جدا، يقتصر على أفراد لا يزال الرابط القبلي يجمعهم. أما في الهند، فيجري تعليم ثمانين لغة محلية في المدارس، من أصل مئتي لغة يستعملها السكان. لذلك كثر الحديث عن تسارع انقراض الغالبية الساحقة من لغات شعوب العالم.إنما أجمعت الدراسات العلمية كافة على أن اللغة العربية تبقى في طليعة القلة المحدودة جدا من اللغات التي سوف تبقى حية، وهي: الصينية (المندرين)، وان كانت سوف تظل لغة محلية على الرغم من كونها لغة خمس سكان العالم. والهندو، رغم أنها سوف تظل لغة محلية بدورها لا يتخطى استعمالها الهند .واللغة الإنكليزية التي تسعى لفرض نفسها لغة العلم والتجارة والتفاهم الأولى في كل العالم، واللغة الإسبانية التي تتحدث بها غالبية شعوب القارة الأمريكية، ثم لغتنا العربية. لقد أرغمت موجات التغريب القسري التي فرضتها الحقبة الاستعمارية العديد من حكومات دول أفريقية على وقف استخدام الحروف العربية كتابة لغاتها المحلية واستبدالها بالحروف اللاتينية. فمن المعلوم أن السواحيلية والهوسا وثلاثين لغة أفريقية أخرى ظلت تكتب منذ قرون بالحروف العربية، وتشكل الكلمات العربية ما يزيد عن ثلث مفردات كل منها. لقد كانت مفارقة تبين هزال استقلال البلدان النامية أن يصدر الرئيس الصومالي السابق محمد سياد باري قراراً بوقف كتابة اللغة الصومالية بالحروف العربية واستبدالها بالحروف اللاتينية في الأسبوع الذي تم فيه قبول عضوية الصومال في جامعة الدول العربية! لكن هذا لم يمنع انتشار اللغة العربية بعد ذلك لغة تفاهم وتعليم بين الصوماليين. مثلما جعلت موجة التغريب الأولى التي

قادها مصطفى كمال لانتزاع تركيا من انتمائها الإسلامي أول تجسيداتها منع كتابة اللغة التركية بالحروف العربية،واستبدالها بالحروف اللاتينية. مع ذلك تشهد الصحوة الإسلامية الراهنة عودة اللغة العربية إلى التداول في تركيا من البوابة القرآنية. ولا تزال الأوردو، اللغة الرسمية لمئتي مليون نسمة في باكستان وعشرات الملايين من مسلمي الهند تكتب بحروف عربية، وهذا هو حال اللغتين الأفغانية والفارسية أيضاً.

❁ ❁ ❁

قالت المسكونة بحب العروبة حياة الحويك عطية أنها قد بكت عندما قال لها البروفيسور جاك بارا، الذي أشرف على رسالتها المقدمة إلى جامعة السوربون لنيل الدكتوراه: «اللغة يا ابنتي هي نظام فكري ثقافي، إذا خرج منه الإنسان سقط في التشوش.. اللغة نظام فكري وبنية، ويمكن للإنسان أن يتقن نظامين وثلاثة وبتميز، لكنه إن لم يبدأ بالنظام الأول الذي يشكل روحه الثقافية كإنسان، فإنه لن يغنم من إتقان اللغات الأخرى إلا فقدان الهوية، الاقتلاع والضياع. أنا فرنسي وأتقن الإنجليزية، وأتقن أيضاً أن أفكر فيها علمياً وبحثياً، لكنها لا يمكن أن تكون لغة أقدم نفسي بها، لغة روحي.لا يمكن لأمة أن تنهض بلغة أخرى، كما لا يمكن للروح أن تعيش في جسد غير جسدها».

كانت حياة الحويك قد بكت قبل ذلك بحين عندما طلبت السيدة منى مكرم عبيد من طالب عربي من الإمارات المتحدة، أثناء مؤتمر في جامعة السوربون في (أبو ظبي) عن السياسة العربية لشارل ديغول، أن يوجه سؤاله إليها باللغة الانجليزية، فيما يعني أنها اعتبرت ضمناً أنه لا يعرف الفرنسية، وفي ما يعني أيضاً اعتباراً ضمنياً بأن استعمال اللغة العربية غير وارد!

وأمام احتجاجات القاعة: نحن في عاصمة عربية، وهذا مواطن يريد أن يسأل بالعربية، استعملت منى مكرم عبيد سماعات الترجمة، لا لجهلها العربية، فهي أستاذة جامعية ووزيرة، بل لترفعها عن سماع سؤال بالعربية (!) شأن تغريبيين كثر انتشروا طفحاً وبثوراً على جلد أمتنا، بعدما كمنوا تحته طويلاً، ثم تمادوا في غيّ محاولة سلخ جلد الأمة والتبرؤ من جوهر ذاتها الحضارية، كما فعلوا!

روت الأخت حياة[١٢] أنها اتفقت مع هدى

جمال عبد الناصر وعدة مشاركين عرب في المؤتمر على أن يلقي العرب كلماتهم بلغتهم، فلم يلتزم بعضهم، لذلك سجّلت للدكتور أحمد نوفل، رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة اليرموك الأردنية، تقديمه ورقته باللغة العربية رغم كتابتها بالفرنسية.

تذكرت حياة الحويك في ذلك المؤتمر، وعندما كتبت عن هذه الواقعة، مقولة الفيلسوف الفرنسي باسكال التي لم ينفك أندريه مالرو، وزير الثقافة في عهد ديغول وفي عهد خليفته، يرددها: «وطني هي اللغة الفرنسية». أما أنا فتذكرت إثارة عدة زوابع في وجهي حين نفّذت تهديدي بالانسحاب من اجتماع رسمي لمجلس السفراء العرب في إحدى العواصم الأجنبية قبل أكثر من ربع قرن، بعدما أصر عميد السلك الدبلوماسي العربي آنذاك على إدارة الجلسة كعادته باللغة الإنكليزية، لا العربية! قلت يومها إنني لن أسمح بجعل الإنكليزية لغة أمر واقع في اجتماعات لجامعة الدول العربية، ليس لأن أكثر من نصف الحاضرين لا يتقنون الانكليزية، وبالتالي لا يتابعون نقاشاتنا، وإنما لأن مبدأ استخدام لغة أجنبية في اجتماعات السفراء العرب فضيحة لنا، وعار علينا جميعاً. غادرت الاجتماع، وامتنعت عن حضور الاجتماع اللاحق، فطلب ذلك السفير من حكومته نقله إلى بلد آخر، وتم هذا. كانت تلك هي المرة الثانية التي خضت فيها مثل هذا الصراع، رافضاً امتهان انتمائنا بجعل لغة أجنبية لغة التواصل بين سفراء عرب في اجتماعاتهم الرسمية، إذ سبق أن عطلت تلك الاجتماعات الرسمية في بلد آخر قبل ذلك بسبع سنوات إلى أن تم الالتزام بالتحدث فيها باللغة العربية. اشتدت الزوابع تلاحقني وتتهمني بالشوفينية(!) ومعاداة التطور(!) والمناكفة على مسائل هامشية (!) لإصراري على استعمال لغتنا العربية في اجتماعاتنا الداخلية الرسمية، على الرغم من إتقاني الإنكليزية والقليل من الفرنسية.. وسرعان ما تلاحق تسديد عدة خناجر إلى ظهري!

لذلك حق للأخت حياة الحويك أن تبكي، وحق لنا نحن أن نفعل مثلها أيضاً، حسرةً وألما مما آل إليه حال بعض أبناء هذه الأمة، التي تنتهك لغتها وتستباح ثقافتها وقيمها، بعد انتهاك أوطانها وثرواتها وتراثها وكرامتها وحريتها ووحدتها وجوهر ذاتها الحضارية، في زمن يطفو فيه سماسرة ولصوص وجهلة

وتغريبيين ومنبهرين بالآخر إلى حد كراهية ذواتهم والتنكر لانتمائهم.

❁ ❁ ❁

في البدء كانت الكلمة، كما قالت الشرائع والأديان المختلفة.أكانت تسمية اللغة الأولى بالأم صدفة؟ -سألت ريم عبيدات- ألكونها مصدر المعارف الأولى كافة، وأداة الارتباط الجسدي والروحي والنفسي الحقيقي الأول والانتماء والمسكن الأول والغرسة الأولى في أعماق النفس قبل الجسد، أم لأنها البسمة والذاكرة الأولى بتجلياتها حتى آخر لحظة من علاقتنا بالحياة. وبالضرورة الحرف والكلمة الدهشة والقيمة الأولى للذات وللآخر.. ربط اللغة بالأمومة- ذلك الفعل الأبلغ والأعمق للحياة والاستمرار وأكثرها أهمية وقدسية ومسؤولية. منظومة عطاء بلا حدود وخروج من الذات الأنوية الأرضية للذات البشرية العليا التي تعلي الآخر وتثمنه في رحلة ارتقاء شفيفة الاعتراف بقيمة الاختلاف.التسمية أرادت إيصال معان عميقة استقرت في الذاكرة الإنسانية. منها أن ارتباطاً عضوياً حقيقياً يربط الإنسان بلغته، هو من العظمة والاستمرار والخلود كالأم التي لا خروج ولا فكاك من خلاياها ودمها وعظامها كمصدر وأداة الصيرورة والحياة. اللغة ليست فقط وعاء فكرياً رغم عظمة الفكرة، بقدر ما هي شيفرة الجينات الثقافية المميزة لهم، وأدوات تفكيرهم وتصوراتهم الأولى. هي الإنسان بعظمته المتنوعة وموسيقاه الخاصة المشكلة لسيمفونية الكون.« .. حماية اللغات الأم دعوة صريحة للخروج من أسر تمترس في شرانق احتكار الصواب وادعاء بعض البشر امتلاك سدة الحقيقة، وبحقهم المطلق في فرض لغة أم واحدة على العالم أجمع، وهي لم تحمل في أحشائها ولم ترضع أياً من الشعوب المطالبة برمي أمهاتهم الحقيقيات في مأوى العجزة».[١٣]

شهدنا وشهد سوانا كيف انسحب الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك من القمة الأوروبية حول مستقبل الطاقة يوم ٢٠٠٦/٣/٢٤ في بروكسل احتجاجاً على تحدث مدير منظمة أرباب العمل المنبثقة عن الاتحاد الأوروبي، ارنست أنطوان سيليير، بالإنكليزية في تلك القمة الأوروبية، بدل التحدث بلغته الوطنية الفرنسية. قام شيراك قبل أن يغادر القاعة غاضبا بتقريع سيليير سائلاً إياه: «كيف يسمح

مواطن فرنسي لنفسه أن يتحدث في هذا المؤتمر بغير لغته الفرنسية؟». أما عندنا، فتتفاقم مظاهر التنكر للغتنا وخيانتها أو تقليص الاكتراث بها وتشويه أصالتها، في المقابل. وقد تكاثر في صفوفنا الداعون إلى اعتماد الإنكليزية لغة أولى للتعليم بذريعة التواصل مع أحدث ما توصل إليه الإبداع والبحث العلمي والتقانة المتطورة في العالم. كما يتسع انتشار الفرانكفونية في أوساط التعليم الثانوي والجامعي العربي. وقد تناسلت جامعات خاصة أمريكية وبريطانية وفرنسية وألمانية على امتداد وطننا العربي تعتمد التدريس بلغاتها الوطنية كليا.

أغفل كثير منا أو تغافلوا عن دروس التجربة البريطانية في الهند مثلا، التي لخصها تقرير اللورد (ميكالي) رئيس اللجنة التعليمية سنة ١٩٣٠ عقب اعتماده اللغة الإنكليزية لغة تعليم وتعامل في الهند. قال التقرير حرفيا: «يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجمانا بيننا وبين الملايين من رعيتنا. ستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم وإنكليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير».

❁ ❁ ❁

هذا هو شأن التغريبيين ودورهم اليوم كما في الماضي، وفي سائر المجتمعات، ولعل خطورة أذاهم تبلغ مداها عندما يكرر بعضهم ما قاله الصهيوني جون كيلي، مساعد وزير الخارجية الأمريكي بعد دخول القوات الأمريكية وتوابعها أرض العراق سنة ١٩٩١،إذ تبجح آنذاك: «لقد انتهى زمن العرب، ماتت العروبة نهائيا الآن. ليس أمام من يريد إنقاذ رأسه من العرب اليوم سوى بوابة وحيدة هي التخلي عن عروبته». إنه نفس ما يشدد عليه بقوة الصهيوني الآخر، برنارد لويس، ملهم المحافظين الجدد الصهاينة الآفلين في الولايات المتحدة، ومستشار عدة رؤساء أمريكيين الذي يتباهى بعض الأكاديميين والمثقفين العرب بأنهم من مريديه، إذ يصر على سحب تسمية عرب وعروبة وعربية نهائيا من التداول!

لا نجد ضرورة لتكرار ما بات موضع شكوى دائمة من استشراء الأمية السافرة والمتقنعة، أو أزمة الكتاب والقراءة في وطننا العربي، أو التدهور المريع في الخطاب الإعلامي وأدواته وتأثيراته، مما بات يستدعي الخجل من الذات. لكن مسؤوليتنا الجماعية والفردية هي إيجاد الحلول والبدائل لإنقاذ

حياتنا الثقافية المأزومة، وخلق وقائع إيجابية وحقائق مشرّفة في الوطن العربي قادرة على أن تفرض مصالحنا ومنظوراتنا على نخب تتحكم بالرأي العام الأوروبي وتصوغه، وتتصدى إنجازاتنا الحقيقية للتشويه الذي يستهدفنا . أكد المهدي منجرة، رئيس الاتحاد العالمي للمستقبليات، على أن «الرأي العام ليس حملات إعلامية وإنما هو احترام كرامة العرب.. في اليوم الذي نحترم فيه كرامتنا سيحترمنا الرأي العام الدولي» وفي ظل عولمة تشكل أحسن الطرق للرشوة والفساد، جعلت الخطر الكبير الداهم انتشار القيم الأمريكية «أزمتنا أزمة وجودية داخلية ذاتية نابعة من غياب الديمقراطية وهيمنة منطق الإقطاع وغياب احترام حقوق الإنسان»[١٤].

ختاماً، للفيلسوف الاقتصادي الإيطالي ميلفريدو بارينو نظرية جوهرها أن المجتمع يقوم تلقائياً بتصحيحاته الذاتية اللازمة بشكل مستقل عن محاولات تغييره بالسيطرة الإدارية، وقد شرح مبسطا بقوله: أعطني في أي وقت خطأً مثمراً ملؤه البذور فيتفجر بتصحيحاته الذاتية، واحتفظ لنفسك بحقائقك المعقمة.

لماذا لا نطمئن والحالة هذه إلى أنه لا خوف على الأمة، لا من غزو خارجي متعدد الوسائل والأشكال والأطماع، ولا من خوارج قدامى أو جدد يتنكرون لجذورهم ويستقيلون من انتمائهم.. نطمئن اطمئناناً لا يخدرنا فنتكاسل أو نتغافل أو نتعاجز عن الواجبات التي أهملناها كثيراً وطويلاً.. لا خوف على أمتنا، فقد أكد النبي العربي (ص) أن «الخير باق في أمتي إلى يوم القيامة»، إنه خير لا بد أن ينتصر آخر الأمر.

الهوامش

١- د. خير الدين عبد الرحمن، نحو انطلاقتنا الحضارية المنشودة، رسالة الجهاد، مالطا، كانون الثاني ١٩٩٠، ص ٩٧-١٠٨.

٢- لوبوان، افتتاحية عددها ليوم ٢٠٠٨/١٠/٩، ص٦.

٣- خيري منصور، الخليج ٢٠٠٨/١/١.

٤- محمد عابد الجابري، المثقفون العرب في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥.

٥- مطاع صفدي، أزمة الفكر العربي مع منهجياته، الفكر العربي، بيروت، حزيران ١٩٧٨، ص ٣١.

٦- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، الكويت، كانون الأول ٢٠٠١، ص ١٣.

٧- عدد تشرين الأول، ٢٠٠٥.

٨- خير الدين عبد الرحمن، الذكريات بين الاشتهاء والبرمجة، الرافد، الشارقة، تموز١٩٩٨.

٩- الاتحاد، (أبو ظبي)، ٢٦/١١/٢٠٠٦، ص٢٩.

١٠- الاتحاد، (أبو ظبي)، ١٩/١١/٢٠٠٦، ص ٢٧.

١١- د. محمـد جابر الأنصاري، تجديد النهضة باكتشاف الذات.. ونقدها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٣٠.

١٢- الخليج ٣٠/١١/٢٠٠٨.

١٣- ريم عبيدات، أمنا يا أيتها اللغة العظيمة، الخليج، الشارقة، ٢٤/٢/٢٠٠٦.

١٤- مقابلة، صحيفة المستقلة، لندن، ١٩/١٢/٢٠٠٠، ص٣.

